نظرات على سنن الإمام الترمذي وميزاته وخصائصه

لسماحة الشيخ العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

[الحلقة الأولى]

عرض وتعليق : بلال عبد الحي الحسني الندوي

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النبيين ، وسيد الأولين محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ! فإن علم الحديث – بجميع فروعه وأقسامه وما يتصل به اتصالا قريبًا أو بعيدًا – من العلوم التي نضجت واحترقت ، كما قال بعض حذاق العلماء والمؤرخين ، وصيارفة العلوم والفنون ، ولم يدع المشتغلون بهذه الصناعة في القوس منزعًا ، وهبت على الصحاح الستة التي عليها الاعتماد في صناعة الحديث ، نفحة من نفحات الخلود والقبول ، اللذين خص الله بهما نبيه المصطفى -ﷺ- وأعلن عن ذلك بقوله : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ لاختصاص هذه الكتب بأخباره وأقواله ، وأحواله وآثاره -ﷺ- ، ولشدة إخلاص جامعيها في عملهم ، وجهادهم الأكبر في ذلك ، وعلو همتهم ودقة نظرهم ، وإيثارهم هذا المقصد الأسنى على كل ما يعز ويلذ ، ويشغل ويستهوى ، وتجردهم له تجردًا يندر نظيره في تاريخ العلوم والفنون ، وفي تاريخ المنقطعين والمتجردين ، من العلماء والزاهدين ، والمتبتلين المجاهدين .

وسرى نور هذا العمل الخالص ، والحياة المباركة التي يدور حولها ،

وينبع عنها هذا العلم الشريف ، وهذه المكتبة الفذة ، فأشرقت الأرض بنور ربها ، وأضاء كل جانب من جوانب هذه المكتبة ، وتناول أئمة كل عصر ، ونوابغ كل بلد ، كل ما يتبادر إليه الذهن ، ويجول في الخاطر ، أو تقع إليه الحاجة من أخبار جامعيها ، وتراجم حياتهم ، وأخبار أساتذتهم وشيوخهم ، وشروطهم والتزاماتهم في هذه الكتب ، وخصائصها ، وما يمتاز به بعضها عن بعض ، والمقارنة بينها ، وفضل بعضها على بعض ، ومذاهبهم في اختيار الروايات ، وترجيحها وتركها ، وقبول الرواة وردهم ، وحكمهم على الأحاديث المروية ، والفوائد التي استخرجوها منها ، والأحكام التي استنبطوها ، إن كان هنالك هذا الصنف من الكلام ، وهذا الجانب من الفقه ، وسمت همة الشراح ودقة فهومهم ، فاقتنصوا في ذلك الأوابد ، وشقوا فيه الشعرة ، وكثرت الشروح والتعليقات (١) ، واشتدت العناية بتدريسها ونشرها وروايتها ، والإجازة فيها حتى أصبحت تلي كتاب الله في تلقى الأمة لها ، والعناية بها ، ولنظرة عجلى في الكتب التي ألفت في تاريخ العلوم ، وفي تاريخ علوم الحديث خاصة ، وفي الكتب التي ألفت في أسامى العلوم والفنون والكتب ، ومقدمات الشروح الكبيرة لهذه الكتب الستة ، تكفى للاطلاع على ضخامة هذه الثروة ، واتساع هذه المكتبة الحديثية ، ومدى عناية الأمة وشغفها بحديث نبيها -ﷺ- بصفة عامة ، وبالصحاح الستة بصفة خاصة .

---

(١) وقد زادت الشروح والتعليقات على صحيح البخاري على مائة وهي سوى ما كتب فيه من المستخرجات والمستدركات وما إلى ذلك .

ولجامع الإمام أبي عيسى الترمذي (١) مكانة خاصة في هذه الصحاح التي تلقتها الأمة بالقبول، وأجمعت على علو درجتها، فإنه قد استفاد بما سبق إليه أستاذاه الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (٢)، والإمام مسلم بن الحجاج القشيري (٣) بالتأليف، وبذل الجهد في جمع الصحاح، وكل ما سبق تأليفه في هذا الشأن، وشق له طريقة خاصة من بين أئمة الحديث، والذين صنفوا في هذا الموضوع، وهكذا كل من جاء بعد السابقين الأولين، ورزق ملكة التصنيف وقوة الاجتهاد والإبداع، والاقتدار على الصناعة، وقوة التصرف فيها، ونضج علمه ونبغ عقله بالتقدم في السن، وبطول الممارسة للصناعة، وطول الصحبة لأئمة هذا الفن، وحبه و وفائه لهم، والاعتراف لهم بالسبق والفضل، وتواضعه وزهده في الدنيا، وتجرده من الأغراض، وطول دعائه وابتهاله إلى الله.

وكان يبدو للناظر في الصحيحين وقد بلغا الغاية في الصحة والدقة، والاقتدار على الصناعة، وفي سنن الإمام أبي داؤد السجتاني فقد جمع شمل أحاديث الأحكام بترتيب حسن ونظام جيد، إنهم ما تركوا لمن يأتي بعدهم شيئًا، وإن وضع كتاب في الأحاديث الصحيحة، يكون من قبيل تحصيل الحاصل، وجهادًا في غير جهاد، وجاء الإمام أبو عيسى فوضع هذا الكتاب، وقد نيف على الستين من عمره وهي سن النضج والنبوغ العقلي والحصافة، فظهرت فيه شخصيته التأليفية الفنية واضحة جلية، وبرهن على أنه سد عوزًا في هذه المكتبة الزاخرة التي كانت قد تكونت في هذا العصر الباكر، وعلى أنه زاد في هذه الثروة، وجاء بشئ جديد،

(١-٢-٢) مضت تراجمهم.

فقد جمع بين طريقتي شيخيه البخاري ومسلم في الجمع بين الفقه وبين وضع الحديث في موضعه، وجمع بين محاسنها واختصاصاتهما، فجمع الروايات المتعددة في مكان واحد، كما فعل مسلم، وأتى بالفوائد الاسنادية كما هو دأب البخاري في مواضع من كتابه، وتكلم على أحاديث كتابه حديثًا حديثًا، وتفرد بمصطلحات ومسائل علمية خاصة به، لا توجد في غير كتابه.

وكان من أول من طرق موضوع ما يسميه الناس اليوم بالفقه المقارن، وكان له فضل كبير يجب أن تعترف الأمة به في حفظه لفقه المدارس الاجتهادية في عصره، ولولاه لضاع منه الشئ الكثير، وعفا عليه الزمان، وتلك خصيصة لجامعه تفرد بها من بين مصنفات الحديث والسنة، فهو من أوثق المراجع وأقدمها في الخلاف، سيما في معرفة المذاهب المهجورة، كمذاهب الأوزاعي (١) والثوري (٢)، وإسحاق بن

---

(١) الإمام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي الفقيه الزاهد (٨٨-١٥٧هـ) ولد في بعلبك وسكن بيروت وتوفي بها، عرض عليه القضاء فامتنع، كان رأسا في العلم والعمل وكان الفتيا تدور بالألسن على رأيه إلى زمن الحكم بن هشام، قال عبد الرحمن بن مهدي: الأئمة في الحديث أربعة منهم الأوزاعي (وفيات الأعيان: ١/٢٧٥) (شذرات الذهب: ١/٢٤١) (الأعلام: ٢/٢٢٠).

(٢) الإمام أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري (٩٧-١٦١هـ) كان سيد أهل زمانه في العلم والورع والحفظ ولد ونشأ في الكوفة وراوده المنصور للحكم فأبى وهاجر إلى الحرمين الشريفين ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة وتوفي، قال أحمد: لا يتقدم على سفيان في قلبي أحد، وقال يحيى بن معين وغيره، أمير المؤمنين في الحديث. (تهذيب التهذيب: ٤/١١١) (طبقات ابن سعد: ٦/٢٥٧) (ابن خلكان: ١/٢١٠) (شذرات: ١/٢٥٠).

راهويه (١) ، وكان من حسناته أنه حفظ للمتأخرين مذهب الشافعي (٢) القديم .

ويكاد يكون كتابه « الجامع » المرجع الأساسي في الأحاديث الحسنة ، وهي ثروة حديثية لا يستهان بقيمتها ، ولا يستغنى عنها ، ولا نعرف أحدًا من المحدثين الكبار الذين عليهم العمدة في هذه الصناعة اعتنى بهذا الجانب مثل اعتنائه ، حتى قال الإمام أبو عمر وعثمان بن صلاح (٢)

---

(١) الإمام إسحاق بن إبراهيم أبو يعقوب ابن راهويه التميمي المروزي (١٦١-٢٣٨هـ) أخذ عن الدراوردي وبقية وآخرين وأخذ عنه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم ، قال الدارمي : ساد إسحاق بصدقه أهل المشرق والمغرب . (تهذيب التهذيب : ١/٢١٦) (ميزان الاعتدال : ١/٨٥) (وفيات الأعيان : ١/٦٤) (شذرات الذهب : ٢/٨٩) .

(٢) هو الإمام الحبر أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ) أحد الأئمة الأربعة ذوى المذاهب المتبعة ، أخذ عن مسلم بن خالد الزنجي ، وسفيان ابن عيينه ، ومالك بن راهويه وآخرين ، (تاريخ بغداد : ٢/٥٦) (وفيات الأعيان : ٤/١٦٣) (تذكرة الحفاظ : ١/٢٦١) (البداية والنهاية : ١٠/٢٥١) (تهذيب التهذيب : ٩/٢٥) (شذرات : ٢/٩) (صفة الصفوه : ٢/٩٥) .

(٢) الإمام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن صلاح الدين بن موسى الكردي الشهرزوري الشافعي (٥٧٧-٦٤٢هـ) تفقه على والده وسمع من عبيد الله بن السمين وفخر الدين ابن عساكر وموفق الدين ابن قدامة وغيرهم ، وحدث عنه شمس الدين ابن نوح المقدسي وكمال الدين سلار وتاج الدين عبد الرحمن وآخرون . كان قوى المادة من اللغة العربية ، متفننًا في الحديث عديم النظير في زمانه (وفيات الأعيان : ٢/٢٤٣) (شذرات الذهب : ٥/٢٢١) (سير أعلام النبلاء : ٢٢/١٤٠) .

في كتابه « علوم الحديث » (١) ، « كتاب أبي عيسى الترمذي – رحمه الله تعالى – أصل في معرفة الحديث الحسن ، وهو الذي نوه باسمه وأكثر من ذكره في جامعه » .

ثم إنه اعتنى اعتناءًا خاصًا بعلوم الرجال ، وعلم الجرح والتعديل ، وتفرد ببعض المسالك في صناعة الأسانيد ، لا يتفطن لها ، ولا يعرف قدرها إلا من رسخت قدمه ، وعلا كعبه في علوم الحديث وصناعته ، هذا عدا فنون كثيرة اشتمل عليها هذا الكتاب ، ولذلك قال الحافظ بن الأثير (٢) في جامع الأصول « هو أحسن الكتب وأكثرها فائدة ، وأحسنها ترتيبًا ، وأقلها تكرارًا ، وفيه ما ليس في غيره من ذكر المذاهب ، و وجوه الاستدلال ، وتبيين أحوال الحديث من الصحيح والسقيم ، والغريب ، وفيه جرح وتعديل » وقال الإمام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري (٣) : « وكتابه عندي أنفع من كتاب البخاري ومسلم .. لأن كتابه يصل إلى فائدة كل أحد من الناس » .

---

(١) ص/ ١٤-١٥ .

(٢) هو العلامة الإمام أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني الجزري ثم الموصلي الكاتب ابن الأثير صاحب جامع الأصول والنهاية في غريب الحديث (٥٤٤-٦٠٦هـ) سمع من يحيى بن سعدون القرطبي وخطيب الموصل وطائفة ، روى عنه ولده والشهاب القوسي والشيخ فخر الدين بن البخاري وآخرون (شذرات الذهب : ٥/١٥) (سير أعلام النبلاء : ٢١/٤٨٨) .

(٢) الإمام الحافظ أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (٣٩٦-٤٨١هـ) سمع من عبد الجبار بن محمد الجراحي و علي بـن محمد >>>

وكان كلام شيخ مشايخنا شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي أشمل لمحاسن هذا الكتاب وخصائصه ، وأدق وأعمق في بيان فضله من بين الصحاح الستة . قال – رحمه الله تعالى – في « حجة الله البالغة » :

« ورابعهم أبو عيسى الترمذي ، وكأنه استحسن طريقة الشيخين حيث بينا وما أبهما ، وطريقة أبي داؤد حيث جمع كل ما ذهب إليه ذاهب فجمع كلتا الطريقتين وزاد عليهما بيان مذاهب الصحابة والتابعين ، وفقهاء الأمصار ، فجمع كتابًا جامعًا ، واختصر طرق الحديث اختصارًا لطيفًا . فذكر واحدًا وأومأ إلى ما عداه ، وبين أمر كل حديث من أنه صحيح ، أو حسن ، أو ضعيف ، أو منكر ، وبين وجه الضعف ليكون الطالب على بصيرة فيعرف ما يصلح للاعتبار عما دونه ، وذكر أنه مستفيض أو غريب ، وذكر مذاهب الصحابة وفقهاء الأمصار وسمى من يحتاج إلى التسمية ، وكنى من يحتاج إلى الكنية ، ولم يدع خفاءً لمن هو من رجال العلم ، ولذلك يقال : « إنه كاف للمجتهد مغن للمقلد » (١) .

[يتبع]

>>> ابن محمد الطرازي ، وأحمد بن علي بن منجويه الأصفهاني وغيرهم ، وحدث عنه المؤتمن الساجي ومحمد بن طاهر وآخرون ، قال السلفي : سألت الساجي عنه ، فقال : كان أمة في لسان التذكير والتصوف (تذكرة الحفاظ : ٢/١١٨٢) (البداية والنهاية : ١٢/١٢٥) (شذرات الذهب : ٣/٢٦٥) (سير أعلام النبلاء : ١٨/٥٠٢) .

(١) حجة الله البالغة : ص/١٧٦-١٧٧ .

فقه الأبواب والتراجم في صحيح الإمام البخاري

[الحلقة الثانية]

سعادة الدكتور تقي الدين الندوي
أستاذ الحديث الشريف وعلومه بجامعة الامارات – أبو ظبي

السبب الثاني : هو أن المؤلف الإمام غير خاضع للأساليب التأليفية والقوانين الوضعية ، التي جرى عليها المؤلفون في فن الحديث في عصره وبعد عصره . بل هو واضع لطريقة خاصة في التأليف ، وإمام مذهب خاص ، وهو لم يقتصر على ما يتبادر إليه الذهن من الأحكام الفقهية المستخرجة من الأحاديث شأن أقرانه ومن سبقه من المؤلفين في علم الحديث والفقه ، بل يستخرج من الأحاديث فوائد علمية لا تدخل تحت باب من أبواب الفقه المعروفة ، وأبعد من دلالاته الظاهرة .

وروى حديث عائشة أن النبي الكريم -ﷺ- اشترى طعاما من يهودية إلى أجل ورهنه درعًا من حديد في أحد عشر موضعًا ، وعقد له أبوابًا وتراجم (١) .

و روى حديث أسماء في كسوف الشمس و خطبته -ﷺ- في عشرة مواضع (٢) .

وروى حديث ابن عمر « إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها » في عشرة مواضع واستخرج منه فوائد جديدة (٢) .

---

(١) عمدة القاري : ٦/١٨٢ .   (٢) فتح الباري : ١/١٨٢ .

(٢) فتح الباري : ١/١٤٥ .